﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين تصحيح انحرافهم العقائديّ، وعتاب المتخلّفين عن غزوة تبوك

لَمَّا قبَّح اللّهُ سبحانه فعلَ المشركين، بتحريمهم وتحليلهم بما يخالفُ أمرَ اللّه، وأبانَ سبحانه بآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: 36]. أنَّ الجهادَ لا يَختصُّ به شهرٌ دونَ شهرٍ؛ عاتبَ المؤمنين الذين شغلَهم حبُّ الدُّنيا عن اتِّباع أمرِ الرَّسول ﷺ في الخروج للجهادِ في غزوة تبوكَ، وكان ابتداؤها في شهرِ رجبٍ سنةَ تسعٍ"[1]، وأيضًا " أنَّه تعالى لَمَّا شرحَ معايبَ هؤلاءِ الكفَّارِ، وفضائحَهم عاد إلى التَّرغيب في مقاتلتِهم"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنفِرُواْ﴾: النُّونُ والفاءُ والرَّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ، ويومُ النَّفْرِ: يومَ ينفِرُ النَّاسُ عن مِنى[3] والنَّفْرُ: الانزعاجُ عنِ الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفزع إلى الشَّيءِ وعنِ الشَّيءِ، والنَّفْرُ: مفارقةُ مكانٍ لمكانٍ، لأمرٍ هاجَ على ذلك[4]، والاستنفارُ: حثُّ القومِ على النَّفَرِ إلى الحرب[5]، وهو المرادُ هنا.

2) ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: من (ثَقُلَ) والثَّاء والقافُ واللَّام: أصلٌ واحدٌ يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربةٌ، والثِّقَلُ كـ(العِنَب): ضدُّ الخفَّةِ، ولذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/60.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(5) الرّاغب، المفردات: (نفر).

سمِّي الإنسُ والجنُّ: الثَّقَلين لكثرة العدَدِ. وأمَّا الثَّقَلُ فمتاعُ السَّفرِ وحشمُهُ، وكلُّ شيءٍ نَفيسٍ مَصونٍ، وجمعُهُ: أثقالٌ[1]. والثِّقَلُ والخِفَّةُ مُتقابِلانِ، فكلُّ مايترجَّحُ على مايُوزَنُ بهِ، أو يُقدَّرُ به، يقال: هو ثقيلٌ، وأصلُه في الأجسام، ثم يُقالُ في المعاني، نحوِ: أثقلَهُ الغُرْمُ والوِزْرُ، والثَّقيلُ يُستَعْمَلُ في الأجسام المرجَّحةِ إلى أسفلَ، ومن هذا الثِّقَلُ قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، والثِّقَلُ هنا يعني: الرُّكونَ"[3]، واثَّاقلتُم هنا معناها: تباطأْتُم وتكاسَلْتم.

3) ﴿أَرَضِيتُم﴾: رَضِيَ: الرَّاءُ والضَّادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ السُّخْط، وأرضيتُه عنِّي، ورضَّيتُه فرَضِيَ[4]. والمعنى هنا: آثرتم حُظوظَكم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حثُّ المؤمنين وتقويةُ عزائمهم على قتالِ أهلِ الكتاب والمشركين، دون تخلٍّ عن ذلك

يا أيُّها الّذين اتَّصفْتُم بالإيمان، واهتديْتُم بالقرآن الكريم، ما لكم حينَ قال لكم رسولُكم الأمينُ: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل اللّه لقتال أعدائكم تكاسلْتم ولزمتم مساكنَكم؟ ماذا عرضَ لكم ممَّا يتنافى مع الإيمان وكماله؟ أتباطأْتم عنِ النُّهوض وحرصتم على البقاءِ في الأَرض التي أَنتم بها، وراحتِها ولذَّتِها مائلين إلى لذائذ الدنيا وشهواتها السريعة الفناءِ، وكرهتم مشاقَّ الغزو ومتاعبه، وتعلَّلتم للتخلف بِأَعذار ليس من شأْنها أَن تمنعكم من شرف الجهاد؟ هل آثرتم حظوظَكم الدنيويةَ ولذَّتَها الفانيةَ وَعَرَضَها الزَّائلَ بدلًا من سعادةِ الآخرةِ ونعيمها المقيمِ؟ إن كان الأمرُ كذلك؛ فقد استبدلْتُم الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا المشوبُ بالهمِّ والحُزنِ في جانب الآخرة ونعيمِها

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(3) الكبيسيّ، الكلمة وأخواتُها في القرآن الكريم: 3/306.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).

الدَّائم والرُّضوانِ الإلهيِّ العظيم فيها إلَّا شَيءٌ قليلٌ لايُعْبأُ به، ولا ينبغي أن يحرص عليه[1].

وسببُ نزول هذه الآية وما بعدها: أَنَّ النبي ﷺ استنفَر أَصحابَه ليَخرجوا معه في غزوةِ تبوكَ، وكان الحرُّ شديدًا وبالناس عُسرٌ وقَحْط، وقد نضِجَت ثمارُ المدينة وطابت ظلالُها، وكانت تبوكُ بعيدةَ المسافة عن المدينة، والعدوُّ قويٌّ وكثيرٌ، فشقَّ عليهم ذلك وتباطؤوا في الاستجابة[2].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى وجوبِ الخروجِ إلى الجهاد إذا دعا الإمامُ بما يعرف بالتعبئةِ العامَّة، أو النفير العام، وإلى أنه يجبُ أن يكون النفيرُ في سبيل اللّه وحدَه، وإلى بيانِ حقارةِ الدنيا وضآلتها أمامَ الآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ افتتاحِ النِّداءِ بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

في الافتتاحِ بالنِّداء تلطُّفٌ بطلبِ الإقبال على اللّهِ، وخلْعِ ما سواهُ؛ تحريضًا للمؤمنين على الجهادِ "بطريقةِ العتاب على التَّباطؤ بإجابةِ دعوةِ النَّفير إلى الجهادِ"[4].

تـجَـلِّي الـلُّـطـفِ الإلـــهـــيِّ في عتابِ المؤمنين، بأسلوب مشفق لطيف

علةُ وصفِ المُنادَى بالاسمِ الموصولِ:

وُصِفَ المُنادَى (أيُّ) بالاسم الموصولِ؛ لينبني عليهِ جملةُ صِلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغةِ الماضي، زيادةَ تلطُّفٍ بهم بوصفِهم بالوصفِ الغالي ممَّا يحثُّهم على الاستمساكِ به والاجتهادِ في العمل بمقتضاهُ.

الإغراءُ بالتَّحلِّي بما وُصِفوا بهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ:

في قولهِ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ﴾، وفيه ﴿مَا﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ،

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 10/72، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1701.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/153.
(3) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/370.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

الإنكارُ والتَّوبيخُ من طرائقِ العتابِ، المؤدّية للمراد بدقّة

والمعنى: أيُّ شيءٍ، و﴿لَكُمْ﴾: خبرُ الاستفهامِ، أيْ: أيُّ ثبْتٍ لكم؟[1] أو استفهامٌ معناهُ: التَّقريرُ والتَّوبيخُ، التَّقديرُ: أيُّ شيءٍ يمنعُكم عن كذا؟ كما تقول: ما لكَ عن فلانٍ مُعرِضًا؟[2]، ويؤيِّده أنَّ الآيةَ نزلت في عتابِ من تخلَّفَ عن رسولِ اللّه في غزوةِ تبوك[3]، والاستفهامُ المجازيُّ من سُبُلِ العِتابِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ في: ﴿إِذَا قِيلَ﴾:

تعليقُ التَّباطُؤِ على مجرَّدِ القولِ، أقذعُ العِتابِ

"إذا: ظَرْفٌ تَعَلَّقَ بمعنى الاستفهامِ الإنكاريِّ، على معنى أنَّ الإنكارَ حاصِلٌ في ذلك الزَّمانِ الذي قيل لهم فيه: انفروا"[4]، "وبُنِي (قيل) للمفعول، والقائلُ هو الرَّسول ﷺ وإن كان المُبَلِّغُ عنه بعضَ أصحابِهِ، لم يُذْكرْ إغلاظًا، ومخاشنةً لهم، وصونًا لذكرِهِ؛ إذ أخْلَدَ إلى الهُوينى والدَّعَةِ مَن أخلدَ، وخالفَ أمرَهُ ﷺ"[5].

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الأمر بمقولِ القول:

الاستجابةُ لأمرِ اللهِ بجدٍّ ونشاطٍ، يدلُّ على صدقِ الإيمانِ

قوله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾، أي: اخرُجوا مسرعين بجدٍّ ونشاط جماعاتٍ ووُحْدَانًا، إمدادًا لحزبِ اللّهِ ونصرًا لدينِهِ؛ تصديقًا لدعواكم الإيمانَ"[6]، وذلك لما في دلالة الفعل من الانتقالِ من مكانٍ إلى مكان.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الوِعاءِ ﴿فِى﴾ بدلَ حرفِ الانتهاءِ (إلى):

الانغماسُ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، مرغوبٌ فيهِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالظَّرفِ ﴿فِى﴾، والفعلُ (نفر) يتعدَّى بـ (إلى)؛ لأنَّه انتقالٌ من مكانٍ إلى مكانٍ على سبيلِ الإهاجةِ، إلَّا أنَّ التَّعدِّيَ بالظَّرفِ هنا ألاحَ إلى ضرورةِ تلبُّسهم بالجهادِ تلبُّسَ مَن أحاطَ بهِ الشَّيءُ من كلِّ جانبٍ، ولو عبَّر بـ (إلى) لما أدَّى هذا المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/206.
(3) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 13/369.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/44.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة:

بـــروز معـاني الدّيـن ومعالمه كـامـلـة، في مقارعة العِدا

النفرة في سبيل الله هو الجهادُ[1]، ويمكن أن يكون قوله: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مرادًا به الدِّينُ كلُّه على سبيل الاستعارةِ التصريحيَّةِ؛ باستخدام اللفظ في غير معناه الأصلي، بناء على وجود علاقة مشابهة بين المعنيين، بجامع تحمُّل المشاقِّ في تَحْصِيل المَطْلُوب، تظهر فيها دلالةٌ على فوائدَ كثيرةٍ، منها: تنزيهُ المؤمنين عن إرادةِ الدُّنيا بجهادِهم من متاعٍ أو رياشٍ أو استكثارٍ، وذِكْرُ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا إلهابٌ وتحميسٌ، واستهانةٌ بما يلاقونَ من ظمأٍ ونَصَبٍ ومخمصةٍ وتعبٍ وعَنَتٍ، وما ينفقون في ذلك من نفقاتٍ، ويقطعونَ من وديانٍ وبرارٍ وقِفارٍ، ويعانون من مكابدةِ الحرِّ الشَّديد أو البرد القارسِ، وما يفارقون أهليهم وأبناءَهم المُدَدَ الطِّوالَ.

كما أنَّه يشعرُهم بمراقبةِ الله لهم واطِّلاعِه ومعيَّتِه، فيعوِّدُهم الانضباطَ رعايةً لحدوده، ووفاءً بعهدِه، واتِّباعًا لشرعِه، ويقوِّي فيهم رابطةَ الأخوَّةِ الإيمانيَّةِ، ويستخرجُ منهم مواقفَ الانفعالِ بها، والاعتمال لها، بما يعوِّدهم الإيثارَ والتَّضحية، والتَّعاونَ على البرِّ والتَّقوى، ويليِّنُ قلوبَهم وطباعَهم لقبولِ التَّناصحِ وإبدائِه، ويجمعُ آمالَهم على الرَّغبِ إلى الله وطلبِ ماعندَهُ من منازلِ الآخرةِ، ويُرَخِصُ الدُّنيا في أعينِهم، فتتساقطُ زهرتُها ذابلةً عن إغرائِهم وإغوائِهم، فيحيونَ للقيَمِ ومكارمِ الأخلاق التي بعثَ رسولَهم ليتمِّمَها، ويرونَه ﷺ إمامَهم في ذلك كلِّه، يتقدَّمُهم في الجهادِ، حتَّى إنَّهم ليتَّقوا بهِ، وإنَّ الشُّجاعَ منهم لَلَّذي يحاذي به، فتَحْلُوا لهمُ الأسوةُ فيه والامتثالُ له، كلُّ ذلك وتضاعيفُ أضعافِه ممَّا يندرِجُ تحتَ قولِه: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضعِها من الآية.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/458.

غرضُ التَّعبيرِ بالمجازِ:

التَّقاعسُ والسُّكونُ إلى الرَّاحةِ، وتركُ الجهادِ من أعظم المذامِّ

قوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وفيه صيغة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ التي تجسِّدُ بمعناها الصَّوتي وإيقاعِها الجَرْسيِّ المعنى الَّذي تحملُهُ، وهو المعنى الحسِّيُّ الذي يكون فيه الجسمُ متراخيًا ثقيلًا، وقد عُدِّي التَّثاقلُ بـ(إلى)، والأصل فيه أن يتعدَّى بـ(عن)، وهذه اللَّطيفةُ تفيدُ تضمينَ (اثَّاقل) معنى (مالَ)، كأنَّ المعنى: (مِلْتُم إلى الأرضِ مع تباطؤٍ شديدٍ)، فكأنَّهم من تقاعسِهم يطلبونَ الوصولَ إلى الأرضِ للقعودِ والسُّكونِ بها، مائلين إلى الدُّنيا ولذائذِها كارهين الجهادَ ومشاقَّهُ، "والتَّثاقلُ: تكلُّفُ الثِّقَلِ، أي: إظهارُ أنَّه ثقيلٌ لايستطيع النُّهوضَ، والثِّقَلُ: حالةٌ في الجسم تقتضي شدَّةَ تطلُّبِهِ للنُّزول إلى أسفلَ، وعُسْرَ انتقالِه، وهو مُستعملٌ هنا في البُطْءِ مجازًا مرسلًا"[1]؛ بما حلَّ فيهم من جُبْنٍ وخَوَرٍ وإخلادٍ إلى الأرض المعبَّرِ عنها في السُّورةِ في قوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24].

أو باعتبارِ ما جذبَهم من برد الظِّلال وطيبِ الهواء ونضْج الثِّمار وظلال المساكنِ حتى (كانوا أرضيِّين في سفولِ الهِمَمِ لا سمائيِّين في طهارة الشِّيم) على حدِّ عبارةِ للبقاعيِّ رحمه الله[2].

أو باعتبارِ ما كانَ من ثِقْلَةٍ وتشبُّثٍ، وقَعْدَةٍ وتلبُّثٍ، أو باعتبارِ ما سيكونُ المعبَّرُ عنهُ تفسيرًا بالجمعِ بينَ الآيةِ، وما يزيدُ في ثناياها للتَّفسير بقول عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بدلًا، وبالذُّلِّ والهوان من العزِّ خلفًا[3]؟ أو أنَّ ذلك كنايةٌ عن عدمِ الانبعاث بما يُخلِّف من جثومِ همومٍ وإحاطةِ غمومٍ وارتخاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(3) ابن الأثير، الكامل في التّاريخ: 2/698.

أعضاءٍ وخذلان قوًى، وعن خَوَرِ النَّفس وثِقَلِ الأوزارِ والأكدار بسوءِ الظَّنِّ بالنَّبيِّ وأتباعِه المجاهدين معه على نحو ما في سورة الفتح: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: 12]، أو تكونُ استعارةً تمثيليَّةً من تشبيهِ معافًى بمريضٍ خانتْهُ قواه، وأخلفتْهُ سابقَ عهدِه ومألوفِه منها رِجلاهُ.

"وفيه تعريضٌ بأنَّ بُطْأَهم ليس عن عجزٍ، ولكنَّه عن تعلُّقٍ بالإقامةِ في بلادِهم وأموالِهم، ومجموعُ قولِه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ تمثيلٌ لحال الكارهين للغزوِ المتطلِّبين للعذرِ عن الجهاد كسلًا وجُبْنًا بحال من يُطلب منه النُّهوضُ والخروجُ، فيقابلُ ذلك الطَّلبَ بالالتصاقِ بالأرضِ، والتَّمكُّنِ من القعودِ، فيأبى النهوضَ فضلًا عن السَّير"[1].

حُسنُ موقعِ الجِناسِ اللَّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾، فيها الجناس، وقد أعانَ القرآنُ الكريمُ - بحلاوةٍ له، وطلاوةٍ عليه، وعذوبةِ ألفاظِه، وخلابةِ ألحانِه، وجمالِ تَهَدِّيه، وجلالِ تَمَشِّيه في الأسماع، واستهوائِه العقولَ، وخلْبِه الألبابَ - أُمَّةَ النَّبيِّ، ولا سيَّما المتذوِّقين منهم للبيان، العالمين بأسرارِه إلى ترديدِه والتَّغنِّي به، والتَّلذُّذِ بترتيلِه؛ ممَّا جعَلَهم يتشبَّعون بهداياتِه، ويتَملَّؤُونَ بحقِّه، وتسطعُ عليهم لائحةُ أنوارِه، ومِن ذلك خصائصُهُ اللَّفظيَّة والصِّياغيَّةُ الَّتي لا يقدرُ على مثلِها، وإن اجتمعَ لها مصاقيعُ الأقوال الحسانِ من الإنسِ والجانِّ. وفي السِّياق الكريم ورد التعبيرُ بلفظين متشابهين في النطق ومختلفين في المعنى، وهما: ﴿ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾، وهو جناسٌ لفظيٌّ غير تامٍّ بين كلمتي: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿أَرَضِيتُم﴾، فهما متفقتان في نوع الحروف وهيئتها، ومختلفتان في معناها؛ فكلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ تعني: الراحةَ وشهواتِ الدنيا الفانية، والإقامةَ بالدِّيار، وكراهةَ الجهاد في سبيل

التّثاقلُ عن الجهاد في سبيل الله خسران، والتّمسُّك بالدّنيا ذُلٌّ وهوان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/469.

اللّه مع أنه ذِرْوة سَنام الإسلام، وكلمة ﴿أَرَضِيتُم﴾ فعل ماضٍ يدلُّ على الرضا والتباطؤِ عن الجهاد، والتعجيبِ من ركون المخاطبين إلى الدّنيا، مع أنَّ إيمانَهم يتنافى مع ذلك، والمعنى البلاغيُّ من هذا الجناس هو التنبيهُ على أنَّ من تثاقلَ عن الجهاد في سبيل اللّه وتمسَّك بالدنيا، فقد رضي بالذُّلِّ والخُسْران.

لطيفةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

التَّوبيخُ بابٌ مِن أبوابِ العِتابِ، واستخدامُ الاستفهامِ في النَّهي تلطُّفٌ

قوله: ﴿أَرَضِيتُم﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ[1]، فلا يليقُ بالمؤمنين أن يرضوا بالدُّنيا بدلًا عنِ الآخرةِ، ويمكنُ أن يكونَ معناهُ النَّهيَ، فكأنَّ التقديرَ: لا ترضوا بها، فإنَّ ذلك أسفهُ رأيٍ وأفسدُه[2]، ويؤيِّد هذا المعنى قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فإنَّه تعليلٌ لهذا النَّهي، وإهاجةٌ على التَّركِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

التَّقريرُ وتثبيتُ المعنى، يؤدِّي إلى الإقلاعِ عن غيرِ المرغوبِ فيهِ

قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، إذ مقتضى ذكرِ الحياة الدنيا في السِّياق الكريم بقوله: ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أن يكونَ التركيبُ على وجه الإضمار: (فما متاعُها)، لكنه عَدَل إلى الإظهار في هذا المقام؛ لزيادةِ التَّقرير، أي: فما التَّمتُّعُ بلذائذِها في جَنْبِ لذائذِ الآخرة إلَّا قليلٌ، والمرادُ بهذا الأسلوبِ الاستفهامُ عن قيمة المتاعِ وقِلَّته وزواله، والغرضُ منه التحقيرُ والتنبيهُ والتحذيرُ من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، كما أنَّ في الإظهار توجيهًا للعناية بالمعنى، وإبرازًا له.

معاني حرفِ الجرِّ:

تنوُّعُ الدّلالةِ ثراءٌ في المعنى، وتصويرٌ للخِسَّة في الاختيار

تظاهرَتْ أقوالُ المعربينَ والمفسِّرين على أنَّ ﴿مِنَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بمعنى (بدلَ)، كقولِه: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.

﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف: 60] أي: بدلَكم[1]، وفي معنى البدليَّة إشارةٌ إلى استبدالِهم الخسيسَ بالنَّفيس، والغَارَّ الفاني بالخالدِ الباقي، ويمكنُ أن تكونَ لابتداء الغايةِ، كأنَّ المعنى: أنَّ إقبالهم على الدُّنيا كأنَّه مبتدئٌ من إعراضِهم عن الآخرة، كأنَّه قيل: أرضيتُم بالميلِ إلى الدُّنيا مبتدئينَ مِنَ الإعراض عن الآخرة[2]؟

موقعُ قولِهِ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ممَّا قبلَهُ:

التَّعليلُ يُعينُ النَّفس على التَّركِ، ويُلْهِبُها على الإقلاعِ

وقعتْ هذهِ الجملةُ ممَّا قبلَها موقعَ التَّعليلِ؛ لما أثارَهُ الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ المفيدُ النَّهيَ، كأنَّ الجملةَ جاءتْ بمنزلةِ التَّعليل للنَّهي السَّابق، والتَّعليلُ عقيبَ النَّهي يُهيِّجُ النَّفسَ إلى الإقلاعِ عن المنهيِّ عنهُ وتركِهِ.

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا﴾:

وظيفةُ الفاء الفصيحة الإبانةُ عن شرطٍ مقدَّرٍ

الفاءُ هنا للإفصاحِ عن شرطٍ مقدَّرٍ؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ تقديرهُ: إذا كنتُم رضيتُم ذلك؛ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا قدرٌ قليلٌ ضئيلٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ:

تمكينُ المعنى وتقويتُهُ، يقنِعُ العقولَ، ويُعلي الحُجَّةَ

قولهُ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، جاءت فيه الجملةُ التَّعليليَّةُ في ثوبِ أسلوبِ القصرِ، واصطفى النَّظمُ من طُرُقِ القصرِ النَّفيَ والاستثناءَ، وهما يساقانِ في مواجهةِ إنكارِ المخاطَبِ، لذا عدَّهُ البلاغيُّون من أقوى طُرُقِ القصرِ، واصطفاءُ أسلوبِ القصر في هذا السِّياق هو الملائمُ للمقام؛ لما فيه من توكيدِ المعنى وتمكينهِ في النَّفس، فقياسُ متاعِ الحياة الدُّنيا بالحساب إلى الآخرةِ قليلٌ، وهو من أساليب الحِجاجِ؛ لأنَّه تضمَّنَ في طيَّاته مقايسةً وطباقًا بين الحياةِ الدُّنيا والآخرةِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/518، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/207، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/50.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.

دلالةُ حرفِ الجرّ على المقايسةِ:

من أساليبِ الإقناعِ في الحوارِ: الظَّرفيَّةُ المجازيَّةُ

اصطفى النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿فِي﴾؛ ليدلَّ بهِ على المقايسة، وقد جعلوا المقايسةَ من معاني (في) - كما في التَّسهيل[1] والمغني[2] واستشهدوا بهذه الآية - وهو في التَّحقيق من معاني، أي: متاعُ الحياةِ الدُّنيا إذا أُقحِمَ في خيرات الآخرةِ؛ كان قليلًا بالنِّسبةِ إلى كثرة خيرات الآخرة. فالتَّحقيقُ أنَّ المقايسةَ معنًى حاصلٌ لاستعمال حرفِ الظَّرفيَّة، وليس موضوعًا له حرفُ (في)[3]، لذا قالوا: قولُهُ: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ من حيثُ المعنى، تقديرهُ: فَما متاعُ الحياةِ الدُّنيا محسوبًا في الآخرةِ[4].

وعبارة ابن مالك رحمه الله بأن المقايسةَ هي: "الدَّاخِلَةُ بَين مفضول سَابق وفاضل لَاحق"[5]، نَحْو الآيةِ الكريمة، فهي مثالٌ على المقايسة الخفيَّة؛ إذ وازن الله تعالى بين الحياة الدنيا - وهي المفضول السَّابق - والحياة الآخرة - وهي الفاضل اللّاحق - في معنى المتاع أو النعيم، وأظهرَ الفرقَ الشاسعَ بينهما، والتفضيلَ البيِّنَ للآخرة على الدنيا. والغرضُ من هذه المقايسةِ هو التنبيهُ والتحذيرُ من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، والترغيبُ والتشويقُ للآخرةِ وما عند الله للمتقين في جنانه.

بلاغةُ استخدامِ الطِّباقِ:

التَّضادُّ: جهةٌ جامعةٌ في مباني العقولِ، وهو أنسبُ للحجاجِ

اقتضى أسلوبُ المقايسةِ في قولهِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، - وهو أقوى أساليبِ التَّعليل، وأعلى وسائلِ الإقناعِ في الحِجاج - استخدامَ الطِّباقِ هاهنا، وكلُّ ذلك يعاونُ في بيان قلَّةِ متاعِ الدُّنيا، ويناصرُ النَّهيَ عنِ الإخلادِ إليها، والطِّباقُ بين الدُّنيا والآخرةِ، لكنَّه ذكرَ

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/156.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 225.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/198.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/51.
(5) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/156.

الدُّنيا وصفًا للحياة، ولم يَذكُرْ في المقابلِ الحياةَ موصوفًا للآخرة، تسليطًا على المدَّةِ القصيرة ذكرَ الحياةَ موصوفًا للدُّنيا، وحذفَها في الآخرة إلماعًا إلى عدمِ ارتباطِها بالزَّمن، فهي دارُ الخلودِ، ولم يذكر "متاعَ الآخرةِ لكثرتِه، ولأنَّ الإيمانَ بها في ذاتِه سعادةٌ غيرُ محصورةٍ، فهي علوٌّ في إدراكِ النَّعيم المقيم الثَّابت الدَّائم"[1].

دلالةُ التَّنكيرِ:

القلَّةُ والحقارةُ وصفانِ ملازمانِ للحياةِ الدُّنيا:

التَّنكيرُ في لفظ ﴿قَلِيلٌ﴾ يفيدُ التَّقليلَ والتَّحقيرَ مُدَّةً، وهو استعمال اللفظ في صورة النكرة بدل المعرفة، أي أنَّ متاع الدنيا لا يستحقُّ أن يعرَّف بالألف واللام، بل هو قليلٌ حقيرٌ صغيرٌ سريعُ الزوال، لا يقاس بمتاع الآخرةِ الذي هو خير وأبقى وأعظم. وكيفَ وهو مناسبٌ لسياق التَّزهيدِ في الدُّنيا وذمِّ الإخلادِ إليها؟

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

رضي، وآثر، وفضَّل:

الرِّضا خلافُ السُّخطِ، والإيثارُ تقديمُ الشَّيءِ، والتَّفضيلُ الزِّيادةُ في الفضل والخير

آثرَ: آثرْتُكَ: أي: فضَّلْتُك، وقوله تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ [النازعات: 38]: فضَّلها، أي: تمسَّك بها واستبقاها[2]، "والإيثارُ في اللُّغةِ: تقديمُ الشَّيءِ، واختصاصُه بالفضل"[3].

التَّفضيلُ في اللُّغةِ: الزِّيادةُ في الفضل والخير، وقد راعى القرآنُ الكريمُ السِّماتِ الدِّلاليَّةَ الخاصَّةَ لكلا اللَّفظين، فاستعملَ الإيثارَ بمعنى: تقديمِ الشَّيءِ على غيرِه، سواءٌ استحقَّ التَّقديمَ أم لم يستحقَّ، فممَّا يستحقُّ التَّقديمَ ما وردَ في قولِ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91]، وممَّا لا يستحقُّ التَّقديمَ ماورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3306/6.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أثر).
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 31.

﴿ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات: 37 - 39]، فهذا من تقديم الأَدْنى على الأعلى، أمَّا التَّفضيلُ؛ فقدِ استُعمِل - حيثُما وردَ في القرآن الكريم - بمعنى الزِّيادة في الفضل والخيرِ، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: 95][1].

رضي: المعنى المحوريُّ: تشبُّعُ النَّفسِ، وامتلاؤها بَلَالًا، ورِقَّةً أخذًا مِن (رضض)، ومِن مِثل: أراضَ: شرِب علَلًا بعدَ نَهَلٍ حتى نَقَع رِيًّا، والرِّضا خلافُ السُّخطِ: رضيتُ به، ورضيتُ عنه[2]، وقد اختيرَ فعلُ ﴿رَضِيتُم﴾ هنا دون (آثرتم) مبالغةً في الإنكارِ؛ لأنَّ الفعلَ (رضي) يدلُّ على انشراحِ الصَّدرِ[3] وتشبُّعِ النَّفْس وامتلائِها، أمَّا الإيثارُ؛ فتفضيلٌ وتمسُّكٌ.

ولم يكونوا؛ ليؤثروا الدُّنيا على الآخرةِ، فيما يُدْعَون إليه - واستجاب الخُلَّص له - ولأن الرضا بالحياة الدنيا من شأن الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: 7 - 8].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 32، 31.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رضي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»